

لغة الطفل وتطورها في ضوء علم اللغة النفسي

د. محمد خضر عريف (*)

مَهَيِّدًا:

إن الكثير من فروع علم اللغة العام Theoretical Linguistics لم تحظَ بالاهتمام الكافي من قِبَل الباحثين العرب، ولم ينقل هؤلاء الباحثون إلى العربية، إلاّ النزر اليسير من هذا العلم بفروعه المختلفة.

وقد ركزت جهود علماء اللغة المعاصرين على حقول دون أخرى، فنراهم أسهبوا في الحديث عن علم بناء الجملة: Syntax، وعلم الأصوات: Phonology، والصوتيات: Phonetics على سبيل المثال، ولكنهم قصرُوا في علوم أخرى بالغة الأهمية، مثل: علم اللغة النفسي: Psycholinguistics، وعلم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics، وعلم تحليل الخطاب: Discourse Analysis.

وكل من يتابع من المختصين المهتمين ما تنشره المجالات العلمية العربية المتخصصة في هذه المجالات، وما يظهر من إصدارات متخصصة، يدرك هذه الحقيقة.

حتى إن المتخصص لياًسى لحال بعض المتخصصين، ممن لا يتقنون اللغات الأجنبية الذين يودون الاستزادة من هذه العلوم، ولكنهم لا يجدون كفايتهم في الأعمال العربية.

وعليه فإن الورقة الحالية ليست إلاّ محاولة فردية، لسد بعض الثغرات في هذا الباب، إذ تسعى إلى إيجاز بعض ما ظهر حول أحد تلك العلوم المهمة، التي لم يكن حظها وافراً في البحوث والدراسات العربية، وهو علم اللغة النفسي.

وهذه الدراسة الموجزة يُتمنى لها أن تكون نواة لدراسة مستقبلية موسعة، تغطي جوانب هذا العلم بتوسع وإضافة.

إلا أن الدراسة الحالية تغطي جانباً مهماً للغاية من جوانب هذا العلم، بشيء من التوسع وهو

(*) قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبد العزيز - جدة - المملكة العربية السعودية.

الجانب المتصل بتطور التفكير اللغوي، وهو جانب معتمد على لغة الطفل بالدرجة الأولى، إذ إن الدراسة الحالية تدرس هذا الجانب من حيث طبيعة التفكير اللغوي عند الطفل، أهو حسي أم مجرد.

ونظراً لأن الدراسات العربية محدودة للغاية في هذا الموضوع، فإن الدراسة الحالية قد اعتمدت بالدرجة الأولى على مصادر غير عربية، فلخصتها واستخرجت منها أهم ما يتصل بموضوع الدراسة.

كما أنها لم تغفل الدراسات العربية الحديثة التي ظهرت في هذا العلم، وإن تكن قليلة للغاية.

٢- الدراسات العربية وعلم اللغة النفسي:

لم تُول الدراسات اللغوية العربية المعاصرة اهتماماً كافياً بعلم اللغة النفسي، ولم تظهر كتب عربية تتناول تجاربه وكشوفه بالقدر الكافي، وما ظهر من الكتب والدراسات العربية ذات العلاقة ببعض فروع هذا العلم، إنما يهتم بموضوعات مثل: اضطرابات النطق والكلام التي تتعلق بعضها بجوانب لغوية نفسية، وتناولت تلك الدراسات عرضاً الحديث عن مراحل اكتساب اللغة، وهو مبحث من مباحث علم اللغة النفسي.

ويبدو أن موضوع اكتساب اللغة: **Language Acquisition** كان المحور الذي دارت حوله معظم الدراسات العربية المتعلقة بعلم اللغة النفسي، إذ إن بعض الدراسات ركزت على اكتساب الجملة عند الطفل، وتضمنت وصفاً للغة الطفل: **Child Language** وهو كذلك من مباحث علم اللغة النفسي.

كما أوردت بعض الكتب اللغوية العامة حديثاً عارضاً عن علم اللغة النفسي، وأسماء بعضها: (علم النفس اللغوي) وذلك من خلال استعراض حقول علم اللغة الحديث بوجه عام، كعلم بناء الجملة، وعلم الأصوات، وعلم الدلالة إلى أن يصل إلى (علم النفس اللغوي). ولا يتجاوز الحديث عن هذا العلم في مثل تلك المصنفات الصفحات القليلة التي لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة.

وعادة ما يأتي الحديث عن هذا العلم فيها مجملاً مقتضباً، ولا يغطي الفروع والاهتمامات والوظائف المتعلقة بهذا العلم.

وإن نبدأ بهذا النوع من الدراسات العربية، فإننا نتخذ كتاب (علم اللغة بين القديم والحديث) لعبد الغفار حامد هلال، مثلاً على الحديث العارض المقتضب عن علم اللغة النفسي، الذي أسماه (السيكولوجيا اللغوية أو علم النفس اللغوي).

يقول المؤلف: " أدرك علماء اللغة - ولا سيما الغربيين - العلاقة الوثيقة بين اللغة والظواهر النفسية، وبالربط بينهما فُسرَت غوامض وحلَّت مشكلات لغوية لم يتيسر للقدمات الاهتداء بشأنها إلى طريق واضح، كما أدرك علماء النفس أن الظواهر اللغوية تكشف عن حقائق نفسية تتعلق بحياة الأفراد والشعوب، فهي المعبر عن خلجات نفوسهم، وهي المرآة التي ينعكس عليها تاريخهم النفسي والمؤثرات عليه، فهما لوانان - من الدراسة - مرتبطان ارتباطاً كبيراً.

فدراسة علم النفس تحتاج إلى دراسة الظواهر اللغوية، كما أن دراسة علم اللغة تحتاج هي الأخرى إلى دراسة الظواهر النفسية، وكل دراسة لهذين العلمين - دون ملاحظة للأخرى - لا تفي بالمطلوب ولا تحقق النتائج المرجوة منها.

ولذا نشأ (علم النفس اللغوي) وتناوله علماء اللغة وعلماء النفس بالبحث والدراسة كشعبة مستقلة، تخدم أهداف كل منها. ومن أساتذة هذا الفرع ريبو وبالي، وفرديك جارلاندا، وهنري دولا كروا وغيرهم^(١).

ثم شرع المؤلف في الحديث عن عوامل تقدم هذا العلم، وعزاها جميعاً إلى وضوح صلة الظواهر النفسية بالظواهر اللغوية، وتأكد الفائدة من ارتباطهما لعوامل ذكر منها: تقدم الدراسة الخاصة ببحوث كسب الطفل للغة، وربط ذلك باكتشاف علم اللغة النفسي أن الطفل يكتسب اللغة عن طريق التقليد، وأن التقليد يتوقف قوة وضعفاً على الإحساس السمعي ونموه عند الطفل. وركز على الإحساس السمعي، وأدرج الحفظ والوعي ودرجة الفهم مدلول الكلمات ضمن العوامل المؤثرة في كسب الطفل للغة، ولكن باقتضاب شديد.

ومن العوامل التي عرج عليها كذلك في الحديث عن ارتباط علم النفس بعلم اللغة: ارتفاع البحوث الخاصة بأمراض الكلام، إذ أشار إلى أن القوى العقلية تتصل باللغة اتصالاً وثيقاً، كما ثبت لعلماء اللغة، ووضح كيف أن هؤلاء العلماء بادروا إلى دراسة المخ الإنساني ومناطقه، وما تختص به كل منطقة والمؤثرات عليها، ثم ختم حديثه عن علم اللغة النفسي بقوله:

" هذا وغيره كان من الأسباب التي أكدت أثر العوامل النفسية في التفكير اللغوي، ومظاهر الكلام الإنساني في الطفولة وغيرها من مراحل النشأة الإنسانية، وفي أثناء الأحداث التي قد تعترى الإنسان وتصرفاته المختلفة، بدون دراسة الجوانب النفسية تكون الدراسة غير علمية، وربما لا تؤدي دورها المطلوب منها حياة اللغة، ولذلك ارتقت بحوث (علم النفس اللغوي) وحقق الأهداف المنوطة به^(٢).

وعليه، فإن عبد الغفار هلال لم يغطَّ جوانب مهمة من جوانب هذا العلم، كالحديث عن الإدراك والفهم والذاكرة والإنتاج اللغوي، ولم يخض في تفاصيل مهمة متعلقة بتطور التفكير

اللغوي عند الإنسان، كما أن تسمية هذا العلم بعلم النفس اللغوي فيها نظر، إذ إن الترجمة الدقيقة لمصطلح: Psycholinguistics هو (علم اللغة النفسي).

ومن تحدثوا عرضاً كذلك عن العلاقة بين اللغة والفكر في إطار علم اللغة النفسي من الباحثين العرب، محمد حسن عبد العزيز في كتابه (مدخل إلى اللغة)، ومما أورده حول هذه العلاقة قوله: "ثار جدل شديد بين علماء النفس في طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر، وفي إمكان أن يفصل أحدهما عن الآخر حتى انتهى أحدهم وهو العالم الروسي (فيجوتسكي) إلى أن النظريات التي وضعت لتفسير طبيعة هذه العلاقة كانت دائماً تنتهي إلى دائرة مفرغة لم يُعثر لها على حل حتى الآن.

ومن التفسيرات التي تجد قبولاً عند كثير من اللغويين وعلماء النفس، التفسير الذي يذهب إلى تطابق التفكير واللغة، فنحن - حين نتكلم - نعبر عن أفكار، وحين نفكر نتكلم ولكن بدون ألفاظ... " (٣).

ثم يلخص المؤلف مقولته تلك في النقاط التالية:

- ١- الفكر نشاط عقلي ذو هدف ألا يكون الفرد شاعراً به.
- ٢- يكون التفكير في بدايته عند الطفل منفصلاً عن الكلام، ثم يتصل به بعد ذلك.
- ٣- الطابع الجوهري للنشاط العقلي، هو استعمال الرموز اللغوية ومن ثم لا ينفك التفكير عن اللغة.

وبالطبع، فإن هذا الوصف شديد الاقتضاب للعلاقة بين الفكر واللغة، ولا يفني بالغرض المنشود من توضيح طبيعة هذه العلاقة وكيفية تفسيرها.

وقد أفرد المؤلف نفسه جزءاً قصيراً من كتابه للحديث عن لغة الطفل في معرض البحث في نشأة اللغة، وليس في معرض وصف تطور التفكير اللغوي عند الإنسان. يقول في هذا الخصوص: "يميل بعض الباحثين إلى اعتبار لغة الأطفال شكلاً لغوياً ييسر لنا التعرف على الطريقة التي ظهرت بها اللغة، غير أن هؤلاء يتغاضون عن حقيقة مهمة، وهي أن الطفل ينمو في بيئة تتوافر فيها لغة متطورة تماماً، وهو محاط بأفراد أسرته الذين يستخدمون هذه اللغة، وعلى هذا فالأطفال لا يعلمونها إلا كيف تحصل لغة منظمة، ولا يعطوننا أية فكرة عما كان عليه الكلام في صورته الأولى.

لقد لاحظ هؤلاء الباحثون، أن الكلمات الأولى التي يستخدمها الأطفال هي أسماء لأشياء أو أشخاص (قطة، بطة، ماما... إلخ) غير أن هذا لا ينتهي إلى أن الكلمات الأولى للإنسان البدائي كانت أسماء من هذا النوع، فالطفل قد يستخدم هذه الأسماء للتعبير عن رغباته، فالكلمة

(قطعة) قد تعني عنده (هات لي قطعة)، لقد تصادف وحسب أن الكلمات التي تعود الطفل استخدامها في التعبير عن مطالبه كانت أسماء، ومع ذلك يمكن الاستفادة من لغة الطفل في التعرف على أسهل أنواع الكلام الذي يمكن أن ينطقه الإنسان قبل أن يتعلم النظام الصوتي للغة معينة.

إن الكلمات الأولى التي ينطقها الطفل، هي في الغالب كلمات مثل (با) و (ما) أو (نا) أو (دا) أو (وا). وكما هو واضح فهي من مقطع طويل يتألف من صامت وحركة طويلة، وهذا يفسر لماذا كانت الكلمات التي تشير إلى أفراد الأسرة، تكون واحدة في عدد كبير من اللغات.

ولا يعني هذا أن العلاقة بين هذه الألفاظ وما تشير إليه علاقة سحرية غامضة، بل الصواب أنه قد تصادف أن كانت هذه الألفاظ هي المنطوقات الأولى للأطفال، وقد أعطى آباؤهم لها هذه المعاني، وربما كانت مثل الكلمات المنطوقات الأولى للإنسان البدائي^(٤).

ومن النقل السابق عن محمد حسن عبد العزيز، يتبين أنه (يجوم حول الحمى يوشك أن يرتع فيه)، إذ إنه تحدث أن الأطفال يستخدمون أول ما يستخدمون الأسماء الدالة على الأشياء، ولكنه لم يرجع ذلك إلى طبيعة تفكير الطفل القائمة على الأمور الحسية أكثر من الأمور المجردة، كما أنه لم يبحر ويتعمق في لغة الطفل التي يعتمد عليها علم اللغة النفسي في تفسير العديد من ظواهر التفكير اللغوي، ذلك أنه حصر حديثه عن لغة الطفل فيما يتعلق من جوانبها بنشأة اللغات الإنسانية، وهو جانب ولاشك محدود.

ومن الكتب العربية الموسعة القليلة، التي ركزت على بعض الجوانب المهمة لعلم اللغة النفسي، كتاب فيصل محمد خير الزراد، الموسوم (اللغة واضطرابات النطق والكلام) وهو كتاب حديث صدر في عام ١٩٩٠م. فقد خاض هذا الكتاب بتوسّع في لغة الطفل، وما يتصل بها من مراحل اكتساب اللغة.

وقد قسم المؤلف مراحل اكتساب اللغة إلى مرحلتين رئيسيتين:

أ) المرحلة قبل اللغوية، وتشمل: مرحلة الصراخ، ومرحلة المناغاة، ومرحلة تقليد الأصوات المسموعة.

ب) المرحلة اللغوية، وتشمل: الكلمة الأولى، والبدء بتركيب الجملة لدى الطفل، والقدرة العقلية، والمحصول اللغوي لدى الطفل، واللغة والتفكير لدى الطفل.

ويتطرق المؤلف إلى جانب مهم من جوانب التفكير اللغوي عند الإنسان، وهو الحديث عن (مرحلة تكوين المعنى والرمز)، ويستغرق في الحديث عن لغة الطفل، ويناقش واحدة من أهم ميزات لغة الطفل، وهي الاستهلال بالتفكير الحسي، والانتقال تدريجياً إلى الفكر المجرد، ويقول في ذلك: " أول مرحلة لتكوين المعنى والرمز هي معرفة استخدامها باستخدام الأشياء التي ترمز

إليها هذه المعاني فيما بعد، ومع نمو الطفل ينمو تفكيره، وتنمو مدركاته، ويمكن القول بأن الطفل يدرك معنى (القلم) عندما يعرف أن القلم شيء يُستخدم للكتابة، ومما يساعد الطفل على إدراك وظيفة القلم، هو تعلمه اللفظ أو الكلمة التي تشير إلى القلم، وكذلك تعلمه الألفاظ التي تشير إلى الأشياء الأخرى التي غالباً ما تصحب عملية الكتابة، مثل: ورقة، حقيبة، مسطرة... إلخ، ومع اتساع مدركات الطفل يبدأ بتكوين العلاقات بين الأشياء، وخاصة علاقات التشابه التي تكون سابقة على علاقات التقابل، يلي ذلك مرحلة تمايز في الأشياء والأنواع والأجناس، والعمليات العقلية التي تساهم في عملية تكوين المعنى هي التجريد، والتصنيف، وهذه العمليات متداخلة، فالتجريد يؤدي إلى التعميم الذي يفيد في إقامة العلاقات بين الأشياء وتصنيفها بواسطة الرموز اللغوية، غير أن لتجريد المعاني وتعميمها درجات تزداد أو تنقص عندما تدخل في تيار التفكير، وذلك لأن التفكير عملية أكثر مرونة من اللغة، وأقرب إلى التغير منها، ولكن التفكير لا يمكن أن يتم أو يستمر دون الاعتماد على اللغة والرمز، لهذا يمكن القول بأن الألفاظ ورموز الأشياء والصور الحسية لا يمكن أن تقوم مقام الأفكار والمعاني المجردة، فهي مجرد مساعد لهذه المعاني، ومن ناحية أخرى لا يمكن الإشارة إلى تكوين المعاني المجردة وتفسير ذلك دون الإشارة إلى نشاط العقل، هذا النشاط الذي يلعب دوراً في تكوين المعاني المجردة التي تصل إلى قمتها على شكل أعداد رياضية، التي هي من نتاج العقل، وليس لشيء واقعي أو مادي، وكلما اكتسب الفرد عدداً كبيراً من المعاني، ساعد ذلك على توفير المجهود الذهني^(٥).

وهذا تناول من المؤلف لقضية التفكير الحسي مقابل التفكير المجرد في لغة الطفل، يلقي الكثير من الأضواء على هذه القضية، وإن كان لا يغطيها بالكامل، بمعنى إجمال أهم ما دار حوله من تجارب علمية في علم اللغة النفسي، وإن يكن هذا تناولاً متميزاً في حد ذاته في الدراسات العربية التي تعرضت للغة الطفل.

ومن الدراسات العربية الحديثة القليلة، التي تتناول بعض الجوانب الهامة في لغة الطفل، دراسة داود عبده الموسومة: "في اكتساب الجملة عند الطفل"، وقد وصف الباحث في هذه الدراسة خصائص كلام الكبار للصغار، حيث بين أن في كلام الكبار للصغار دروساً في المشاركة في الحديث، كما أن فيها دروساً في الدلالة، ودروساً في التركيب اللغوي. كما بين أن كلام الكبار للصغار يتميز بالبطء في الكلام وقصر العبارات وبساطة التركيب.

أما الجزء الذي يتعلق بعلم اللغة النفسي بشكل مباشر، ويتصل بوضوح بموضوع اكتساب اللغة، فهو الجزء من الدراسة الذي يصف مراحل نمو الجملة عند الطفل، وقد غطى فيه داود عبده عدة مراحل، منها مرحلة: الكلمة - الجملة أو ما يُطلق عليه Sentence Word، ومرحلة الجملة المختصرة، وضرب لها أمثلة من العربية والإنجليزية، ثم وضح كيف يتم الانتقال من الكلمة - الجملة إلى الجملة المختصرة.

ثم وصل إلى مرحلة مهمة أسماها: (مرحلة الطلاقة)، ووصف أهم خصائصها، إذ أوضح أنه في هذه المرحلة الخاصة تزداد المفردات زيادة كبيرة، كما أن الجمل تقترب من الاكتمال، وضرب لذلك أمثلة عديدة.

ثم وصل إلى مرحلة: (الإيقان)، ورغم أنه أطلق عليها هذا الاسم، إلا أنه تحدث عن وجود بعض النقص في لغة الطفل في هذه المرحلة، وهذا النقص يتبدى في المفردات والتراكيب اللغوية، وضرب أمثلة على بعض التراكيب التي تأخر إتقانها لدى ولديه، منها: عدم حذف النون قبل الضمير المتصل، ومنها الخلط بين حروف الجر، واستعمال الضمير المنفصل بدل الضمير المتصل وسواها.

ثم ختم دراسته بالحديث عن الأحكام اللغوية، وأن الأطفال يفتقدون إلى المقدرة على إعطاء الأحكام اللغوية الصحيحة، كما أوضح أن الكبار يتحدثون إلى الأطفال بطريقة يظنون فيها أنهم يفهمونهم، وأن الأطفال يفكرون بالطريقة نفسها^(٦).

ورغم أن دراسة داود دراسة رائدة، فيما يتصل بلغة الطفل في اللغة العربية، إلا أنه لم يتعرض لجانب مهم في هذه اللغة، وهو كونها حسية أو مجردة. ولكن تبقى دراسته هذه من الدراسات العربية القليلة جداً ذات الصلة المباشرة بعلم اللغة النفسي عامة، ولغة الطفل خاصة، إذ إن الدراسات العربية في هذا المجال قليلة.

ويتبين مما سبق استعراضه من دراسات لغوية عربية حديثة، أن معظم هذه الدراسات لم تتوسع في بيان أهداف ومجالات وحقول علم اللغة النفسي، وأن بعضها قد تحدث عنه عرضاً في معرض تعداد فروع علم اللغة الحديث، كعلم الأصوات وعلم الدلالة.

أما تطوّر التفكير اللغوي، فقد خاضت فيه بعض الدراسات القليلة داخل إطار اكتساب اللغة، وتفرغت بعض الدراسات للغة الطفل، ووصف أهم مراحلها، ومثلت لها من العربية والإنجليزية.

ولم يحظ موضوع الحسية والتجريد باهتمام بالغ، من قبل الدراسات العربية المهمة بلغة الطفل.

وأمام كل تلك الحقائق، فإن الحاجة تبقى قائمة لدراسة موجزة، تحاول أن تبين أهم حقول واهتمامات وأهداف علم اللغة النفسي، كما تحاول أن تتناول جانب التطور في التفكير اللغوي عن طريق دراسة لغة الطفل، وهو ما تسعى إليه الدراسة الحالية.

٣- أهداف علم اللغة النفسي العلمية والحقول التي يهتم بها:

من المعروف أن أهداف علم اللغة النفسي هو تفسير التفاعل بين اللغة والنظام الفكري عند

الإنسان. ويبدو أن من العسير تحديد ما إذا كان هذا الحقل لغوياً أكثر من كونه نفسياً أو العكس، بمعنى صعوبة تحديد اهتمام هذا الحقل باللغة أكثر من النفس أو العكس، فمع أن معظم الكشوف في هذا العلم متعلقة باللغة، إلا أن التجارب العلمية التي تجرى فيه، والتي تصل إلى تلك الكشوف هي من تجارب علم النفس، أو بمعنى أصح تتبع هذه التجارب وسائل علم النفس في إجرائها.

لذا؛ فإن مختبرات علم النفس تُستعمل كثيراً في تجارب علم اللغة النفسي، وعليه فإن طرق البحث في علم النفس كثيراً ما تتبع للتوصل إلى النتائج المرجوة. لذلك؛ فإن الحكم الواقعي على هذا العلم هو أنه حقل لعلم النفس وعلم اللغة معاً دون إمكانية رسم خط فاصل بين الحقلين.

وحين نبحت في أهداف علم اللغة النفسي، يمكن لنا طرح السؤال الآتي: لماذا يُجري علماء علم اللغة النفسي التجارب العملية؟

ويبدو أن الإجابة البديهية عن ذلك هي أن علماء اللغة النفسانيين يحاولون إقناع أنفسهم - استناداً إلى بعض الأدلة القياسية - بأن بعض الظواهر السلوكية أو الذهنية المتعلقة بظواهر أخرى لغوية هي حقيقة واقعة.

وبحثهم هذا يشبه إلى حد بعيد البحث النفسي، لذا فإن البحث اللغوي النفسي يبدو شائئاً للغاية، حين يقدم تصوراً يخالف ما تعارف عليه الناس، أو اتفقوا على صحته، فيأتي هذا العلم بما يناقضه أو يخالفه بالضرورة.

وقد وضح سلوبين Slobin كيف يقوم علم اللغة النفسي بهذا الدور، يقول: "يأخذ علم اللغة النفسي - عادة - ما هو في حكم المسلّمات لدى اللغويين، ثم يحاول الحكم عليه من خلال تجارب مقننة تخضع للمراقبة التجريبية. فعلى سبيل المثال، يزعم علماء اللغة أن الجمل التي بها أفعال مبنية للمجهول، تكون أكثر تعقيداً من الجمل التي بها أفعال مبنية للمعلوم، كما يزعمون مثلاً أن بعض الجمل تتضمن بعض الافتراضات الكامنة أو العميقة (وهو ما يُشار إليه بالبنية العميقة والبنية السطحية).

ومع أن ذلك كله يُعتبر كالمسلّمات، إلا أن علم اللغة النفسي يخضعه للتجريب، لذا فإن علماء اللغة النفسانيين يحاولون تحسس الظواهر اللغوية وكأنها في غرفة مظلمة، فيقيسون (مواقيت التفاعل) و(منحنيات التعلم) و(أخطاء الذاكرة)، وهكذا. وكل ذلك من مجالات اهتمام علماء النفس.

وهذا الموقف الذي يقفه علماء اللغة النفسانيون، يُعتبر موقفاً ذا نزعة خاصة، إن لم نسمه (موقفاً مزاجياً). ذلك أن علماء النفس بصفة عامة، لا يريدون التسليم ببعض الظواهر العلمية على أنها حقائق لا جدال فيها، بدون أن يختبروها بأنفسهم ويروها تحدث في مختبراتهم حين يخضعونها لوسائل التثبيت التي يؤمنون بها ويوافقون عليها^(٧).

ونفهم من النقل السابق أن الهدف الرئيس لعلم اللغة النفسي هو إيجاد أدلة تجريبية على وجود الظواهر اللغوية .

وهناك بعض الحقول الخاصة، التي يهتم بها علم اللغة النفسي، والتي يشتغل بها معظم علماء اللغة النفسانيون، وهذه الحقول هي:

- (١) الإدراك Perception: ويهتم بما يحدث للعبارة اللغوية حين تلقاها، أو الاستماع إليها، (أو كيفية استيعاب العبارات).
- (٢) الفهم Comprehension: ويهتم بكيفية تحديد ما تعنيه الجملة أو العبارات من قبل المتلقي أو السامع.
- (٣) الذاكرة Memory: وتهتم بكيفية اختزان المعلومات التي يتلقاها الإنسان من خلال العبارات.
- (٤) إنتاج الكلام Production: ويهتم بكيفية صياغة العبارات بعد أن يتم اختزان ما تلقاه الإنسان أو سمعه.

كما يهتم علم اللغة النفسي بحقول أخرى مثل النمو اللغوي، حينما يحاول اللغويون النفسانيون أن يكتشفوا كيف يكتسب الأطفال اللغة، والمراحل التي يمر بها الكسب اللغوي.

كما أن علم اللغة النفسي يتعامل مع علم اللغة النظري البحث. إذ إن الأبنية السنتاكتيكية (المتعلقة بعلم بناء الجملة Syntax) تؤخذ بعين الاعتبار في هذا النوع من البحث العلمي، وقد أجرى العديد من التجارب اللغوية النفسية لتفسير بعض الظواهر المتعلقة ببناء الجملة استعملت أساساً للكثير من التجارب في علم اللغة النفسي.

فعلى سبيل المثال أثبت معملياً أن أسلوب المبني للمجهول يتطلب وقتاً أطول ليفهم إذا ما قورن بأسلوب المبني للمعلوم. ذلك لأن المبني للمجهول يتطلب تحويلات أكثر مما يتطلبه المبني للمعلوم، ويُعتبر ذلك دليلاً في علم اللغة النفسي على حقيقة في علم بناء الجملة.

كما يهتم علماء اللغة النفسانيون بعلم الأصوات Phonology ويستندون إلى الكثير من كشاف علم الأصوات Phonology وعلم الصوتيات Phonetics في أبحاثهم. ويحاولون جاهدين أن يفسروا الكثير من الظواهر الصوتية بالاستناد إلى أدلة من علم اللغة النفسي.

فعلى سبيل المثال، أمكن إثبات أن بعض فئات الأصوات تُكتسب من قبل الناطقين باللغة قبل فئات أخرى، وكانت هذه الفئات هي نفسها التي أشار إليها نظرياً علماء الأصوات والصوتيات، مما أسدى خدمة جليلة لحقل الأصوات، حيث أثبت العلم التطبيقي ما جاء فيه من فرضيات نظرية.

٤- الهدف من الدراسة الحالية:

كما تهدف إليه هذه الورقة بيان كيفية تعامل علماء اللغة النفسانيين مع الحقول الواسعة لعلم اللغة النفسي من أجل تحقيق الهدف الرئيس لهذا العلم، وهو بيان كيف أن علم اللغة وعلم النفس يتفاعلان معاً، وكذلك بيان العلاقة المهمة بين اللغة والنظام الفكري عند الإنسان عامة والطفل خاصة.

فما لا شك فيه أن كلاً من اللغة والنظام الفكري يُعتبران في مفهوم علم اللغة الحديث عالمين مجردين، أو شديدي التجرد، لذلك فإن إصدار أي أحكام تتعلق بهما يُعتبر أمراً بالغ الصعوبة، ولا يمكن الجزم بأن أي حكم علمي بشأن تفاعلهما معاً أو كيفية عمل كل منهما يُعتبر أمراً مسلماً، ذلك أن كل ما يأتي به علم اللغة لا يمكن إثباته جراحياً أو تشريحياً.

لذلك، فإن السبيل الأوضح للمجيء ببعض الأدلة التجريبية على صحة فرضية لغوية هو استعمال بعض التجارب التطبيقية على النمط الذي يجري فيه علم النفس أبحاثه. وإن كان بعض علماء اللغة يستعملون أدوات ووسائل أخرى لإثبات بعض فرضياتهم اللغوية، كاستنادهم مثلاً إلى أمراض الكلام، حيث يدللون على أن جزءاً ما من الدماغ مسئول عن وظيفة لغوية معينة، إذا وجدوا مريضاً تعطلت لديه هذه الوظيفة لإصابته في الدماغ في تلك المنطقة بالذات، ومع هذا كله، فإن الكثير مما به اللغويون في هذا الباب ما يزال موضوع نظر، ويذكرنا بالمقولة اللغوية العربية القديمة الشهيرة: (أضعف من حجة نحوي).

وكما يتجلى من العنوان، فإن من أبرز أهداف الدراسة الحالية البحث في تطوّر اللغة والفكر عند الطفل، من حيث كون تفكير الطفل اللغوي حسيّاً أو مجرداً، والتدرّج الزمني لتعلم الكلمات عند الأطفال، وترتيب إدراك الطفل للكلمات ومدى قدرته على وصف الأشياء بصفات مجردة، ومن ثمّ تحديد مراحل التفكير اللغوي عند الأطفال.

٥- الحقول المتصلة بالعلاقة بين اللغة والنظام الفكري عند الطفل:

٥-١- الإدراك: Perception:

يتحدث الكثيرون من علماء اللغة النفسانيين عن الإدراك في غير موضع من أبحاثهم، ويُعتبر الإدراك في تقديرهم فائق الأهمية باعتباره المرحلة الأولى في العمليات الفكرية اللغوية: Language mental processes.

ويتحدث علماء اللغة النفسانيون عن الإدراك من وجهات نظر متعددة، إذ يتطرقون إلى نقاط مثل: وحدات الإدراك: Perceptual units، وتمييز الكلمات: Word recognition، والتمييز

بدون سياق: **Recognition without context**، وتأثيرات السياق على تمييز الكلمات: **Contextual effects on word recognition**، والمتغيرات النحوية والدلالية في إدراك الجملة: **Grammatical and semantic variables in sentence perception** والكثير من النقاط المهمة الأخرى.

ومن اللغويين النفسانيين الذين تحدثوا بإسهاب عن الإدراك، بافيو وبيغ **Paivio and Begg** إذ أخذوا بعين الاعتبار الكثير من الظواهر والنظريات ذات العلاقة بالإدراك اللغوي.

وكما تنص عليه نظرية الحركة في إدراك الكلام: **Motor Theory**، فإن النطق بأصوات الكلام يُعتبر مهماً لتحقيق إدراك طبيعي للكلام.

وهذه النظرية مهمة للغاية، إذ تقود إلى ظواهر مدهشة، منها الطبيعة الفئوية لإدراك الصوامت: **Consonal perception**. ويبيّن المؤلفان كذلك أن للإدراك وحداته الخاصة.

وتصدر الأهمية في الإدراك، إدراك الكلمات بمعزل عن السياق: **Perception of words out of context**، حيث يكون لعوامل أخرى مثل التكرار والخاصيات الدلالية، دور مهم في هذا الإدراك. إضافة إلى إدراك الكلمات في السياق، حيث تساعد الكلمات الأخرى على هذا الإدراك، أو تكون عوامل مؤثرة فيه. وفي المستويات الأكثر تعقيداً - كالجمل الطويلة والنصوص - يكون للعوامل النحوية والدلالية وسواها دور معياري لإدراك الكلام كما دلّت عليه العديد من التجارب العلمية^(٨).

وعليه، فإن الإدراك من وجهة نظر اللغويين النفسانيين، يُعتبر المرحلة الأولى من مراحل العملية الفكرية اللغوية، فبدون الإدراك لا يمكن للمتحدث باللغة الوصول إلى المراحل اللاحقة التي تتصل بالفهم والذاكرة والإنتاج الكلامي.

٢-٥- الفهم: **Comprehension**

في المرحلة التي تلي الإدراك، يبدأ سامع اللغة ومتلقّيها بفهم ما يسمعه أو يتلقاه، ويمثل ذلك خطوة رئيسة قبل أن يصبح الفرد قادراً على تخزين ما يسمع في ذاكرته. ويُعتبر الفهم عملية مهمة للغاية تحدّث عنها بإسهاب كثيرون من علماء اللغة النفسانيين.

ويصف اللغويان كلارك و كلارك **Clark and Clark** الفهم " بأن له مفهومين عامين: فمفهوه الضيق أنه يدل على العمليات الذهنية التي تتم لدى المستمعين عند تلقي عبارات من المتكلمين، ومن ثم استعمال تلك العبارات لبناء تفسير لما يظنون أن المتكلم يود تبليغه إليهم. وبعبارة مبسطة: أن الفهم هو بناء المعنى من الأصوات. وبالتفكير قليلاً، يمكن التخمين مبدئياً بالماهية الفعلية للفهم في مفهومه الضيق"^(٩).

كما يوضح اللغويان المفهوم العريض للفهم بالقول: حين يتلقى السامعون عبارة (خبرية) ما، فإنهم في العادة يستخلصون المعلومات الجديدة المبلغة إليهم في هذه العبارة، ثم يخزنونها في الذاكرة.

وحين يسمعون سؤالاً، فإنهم في العادة يبحثون عن المعلومات المطلوبة، ثم يحضرون الإجابة. وحين يسمعون أمراً أو طلباً، فإنهم في العادة يقررون ما يجب عليهم فعله ثم يفعلونه، وباختصار ففي معظم الظروف يتصور السامعون ما يجب عليهم فعله تجاه عبارة ما، أو جملة ما ثم يفعلونه. ولذا يجب على السامعين القيام بعمليات ذهنية إضافية ليتمكنوا من الإفادة مما بنوه من المعاني بالاستناد إلى الفهم.

فالفهم أشبه بتفسير ضمني يجريه الفرد الذي يتلقى العبارات اللغوية، أو أنه بمثابة تحليل ذاتي للمُدخل اللغوي، ويندرج ذلك في إطار المفهوم الضيق للفهم الذي تحدث عنه كلارك و كلارك.

أما المفهوم العريض للفهم، فيقتضي بعض الإجراءات الذهنية الإضافية التي يقوم بها الفرد، وهي تدور في فلك رد فعله لما حلله في ذهنه، ففي الجمل الخبرية يقوم الفرد باستخلاص المعلومات قبل أن يخزنها في الذاكرة، وفي الجمل الإنشائية: يبحث الفرد عن إجابة للسؤال الذي يُطرح عليه إن كان الإنشاء سؤالاً. أما إذا كان الإنشاء طلباً، فإنه يفكر فيما يجب عليه فعله تجاه هذا الطلب ما إذا كان استجابة أو رفضاً، ولعل ذلك يوضح باختصار كيف يتم الفهم في العملية الفكرية اللغوية.

٥-٢- الذاكرة: Memory:

بعد فهم أية عبارة أو جملة مباشرة، تُخزن بعض المعلومات في ذاكرة السامع. وقد وصف الكثيرون من علماء اللغة النفسانيين الذاكرة وتحدثوا عن كيفية عملها. ومن هؤلاء فوس وهيكس: Foss and Hakes، اللذان بيّنا أن واحدة من وظائف تمثيل الذاكرة للجمل اللغوية هي دعم الاستنتاج. إذ إن المعلومات المرتبطة بالجمل تحدد الاعتبارات المنطقية لدى الفرد المتعامل مع هذه المعلومات.

كما راجع المؤلفان عدداً من النظريات التي تهتم بالشكل الذي تقدم فيه أو تُعرض فيه الجمل، كما وصفا النماذج المفترضة ذات المراحل المعينة في عرض الجمل.

كما بيّنا أن عملية الفهم تتأثر كثيراً بالتركيب الخاص بالذاكرة لدى الفرد المتلقي أو السامع، كما ناقش اللغويان تصور الذاكرة للوحدات المفرداتية أو (الكلمات المفردة). وهذا التصور للوحدات المفرداتية لدى المتلقي له عدة أشكال Models، منها الشكل الذي يهتم بالهيئة أو الصورة، ومنها الشكل الإجرائي.

فالشكل الذي يهتم بالهيئة أو الصورة ينص على أن تصور الكلمة له علاقة بالهيئة أو الصورة، مثل كلمة (إنسان) أو كلمة (حياة) وما إليهما. ومع أن هذا الشكل من التصور يستطيع أن يفسر بعض المعاني السطحية، فهناك الكثير من المعاني التي لا يستطيع التعامل معها دون تعديلات جوهرية في مدلولاتها.

ثم بين المؤلفان أن الشكل الإجرائي في تصور المفردات، يمكن دمجها مع شكل آخر يتعلق بالذاكرة الخاصة بالجملة^(١٠).

ورغم هذه المحاولات الجادة من المؤلفين، إلا أن الإطار المعرفي الذي يمكن أن يوضح بجلاء كيفية تخزين العبارات المفرداتية في الذاكرة، ما يزال قيد الكثير من النظريات والمناظرات.

فمع أن الكثيرين من علماء اللغة النفسانيين قد شرحوا شكل التصور الذي يتعلق بالصورة أو الهيئة، إلا أن من حاولوا شرح الشكل الإجرائي لم تسعفهم الحيلة كثيراً إلى ذلك. لذا فإن عملية التخزين في الذاكرة تبقى بمثابة اللغز المحير لعلماء اللغة، إلا أن الدليل العلمي على كيفية الاختزان يعتره الكثير من النقص والضعف.

٥-٤- الإنتاج الكلامي: Production:

إن الإنتاج الكلامي يعتبر المرحلة الأخيرة في العملية اللغوية. إذ يبدأ المتكلم بتلقي العبارات، ثم يفهمها، ومن ثم يحتزن بعض المعلومات في ذاكرته، وفي النهاية ينتج بعض العبارات الخاصة به.

وقد درس علماء اللغة النفسانيون الإنتاج الكلامي عن طريق ملاحظة المتغيرات التي تؤثر في الطلاقة، كما تؤثر في المضمون الذي يختاره الفرد فيما يصدر عنه من عبارات.

وتُقاس الطلاقة بقياس كمية الكلام المنطوق أو المكتوب في مدة زمنية معينة، كما تقاس بقياس مواقيت الوقفات بين الكلام، إضافة إلى التلعثم أو التلجلج الذي يحدث عند بعض المتكلمين.

وتظهر للباحثين بعض التأثيرات على الطلاقة من بعض الكلمات المختارة، أو من الطريقة التي تُرتب بها بعض الكلمات في بعض الأحيان. وقد أثبتت الدراسات المعاصرة أن الطلاقة وتخيّر المفردات لهما علاقة مباشرة بمتغيرات ذات علاقة ببناء الجملة وبالذلاله.

ولكن هذه الدراسات أثبتت أيضاً تأثيرهما بعوامل متعلقة بمؤثرات دلالية نفعية: Pragmatic مما يوحي بعلاقة مهمة ومعقدة بين المتحدثين باللغة والبيئة اللغوية وغير اللغوية المحيطة بهم التي يحدث فيها الكلام. وذلك يعني أن الكلام المنطوق ومدى طلاقة المتحدث به، يعتمد على قدرات المتحدث النحوية والذهنية، كما يعتمد على مقتضى الحال وحدود الموقف الاتصالي ومحاذيره.

ويزعم بافيو و بيغ : Paivio and Begg أن الإنتاج الكلامي يُعتبر حقلاً لم يُدرَس كما يجب بعد ، ويؤكد أن معظم الكشوف في مجال التعبير اللغوي لا يمكن تعميمه وأخذه على أنه مسلّمات لا تنقض . ومن ذلك انتقادهما لنظرية أوزجود وبوك Osgood and Bock ، التي تفضي إلى أن جميع اللغات الإنسانية تتضمن ترتيباً للكلمات هو : فاعل / فعل / مفعول . كما ينتقدان نظريات أخرى في هذا المجال ويقولان : " إن الدراسات المستقبلية في مجال التعبير مطلوبة دون شك " (١١) .
وعليه ، فإن مرحلة الإنتاج الكلامي تُعتبر المرحلة الأخيرة من مراحل العملية الفكرية اللغوية .

٦- العلاقة بين علم اللغة النفسي وعلم اللغة النظري:

سبق أن أوضحنا أن كشوف علم اللغة النفسي تخدم كافة النظريات في علم اللغة النظري ، والكثير من التجارب في علم اللغة النفسي تُبنى على ظواهر صوتية أو ظواهر في بناء الجملة ، وذلك يعني أن العلمين يشتركان في الكثير من الأساليب والأهداف . والمظهر المشترك المهم الذي يجمع بينهما هو أنهما معاً مهتمان باللغة .

وستقدم هذه الورقة بعض النماذج على بعض التجارب في علم اللغة النفسي ، التي بُنيت على ظواهر صوتية أو ظواهر في بناء الجملة ، كما ستشرح العلاقة بين علم اللغة النفسي واكتساب اللغة ، وعلاقته بلغة الطفل كذلك .

٦-١- علم اللغة النفسي وعلم بناء الجملة التحويلي: Transformational syntax :

من اللغويين النفسانيين الذين أجروا بعض التجارب التطبيقية المبنية على ظواهر في بناء الجملة ، جورج ميللر : George Miller ، الذي قام بقياس مواقيت ردود الفعل ليختبر بذلك فرضية تعقيد التحويلات : Transformational Complexity Hypothesis المعروفة في علم بناء الجملة .

وافترض ميللر أن الوقت اللازم لعمل التحويلات في جملة ما ، له صلة مباشرة بعدد الخطوات والتعقيد الذي تتضمنه هذه التحويلات . فعلى سبيل المثال ، يستلزم تحويل جملة أساسية General sentence إلى جملة المبني للمجهول وقتاً أطول من تحويلها إلى جملة منفية .

وقد قام ميللر بتجربة لإثبات ذلك ، اعتمد فيها على مجموعة من الأشخاص ، وقدم لهم قائمتين على شكل عمودين يضم كل منهما مجموعة من التحويلات لجملة معينة ، وكان على كل شخص أن يجد في العمود الأيسر الجملة التي تتفق مع الجملة الأولى في العمود الأيمن ، ثم التي تتفق مع الجملة الثانية وهكذا . . وذلك في مدة ستين ثانية . ثم قام بتسجيل الاختيارات الصحيحة

والوقت الذي استغرقته، وباستخدام هاتين المعلومتين، استطاع الباحث أن يقدر الوقت اللازم لكل نوع من التحويلات الستة المترتبة على مطابقة الأنواع الأربعة من الجملة التي استعملها على أن تطابق جملتين في وقت واحد.

وأثبتت النتائج أن التحويلات ذات الخطوتين تتطلب وقتاً أطول من التحويلات ذات الخطوة الواحدة.

٦-٢- علم اللغة النفسي وعلم الأصوات: Phonology:

لعل لغة الطفل هي الحقل الأهم الذي يلتقي فيه هذان العلمان: علم اللغة النفسي وعلم الأصوات، لذلك فإن الباحث سيخصص الجزء الأخير من هذه الورقة للحديث عن لغة الطفل وعلاقتها بالنظام الفكري.

ويتحدث علماء اللغة النفسانيون عن اتجاهين رئيسيين لفهم التطور الصوتي في لغة الطفل، الاتجاه الأول يقوم على التركيز على عدد من الأصوات المستعملة من قبل الطفل، وعلى التطور المرحلي لدى الطفل في استقبال هذه الأصوات. أما الاتجاه الثاني، فيهتم بالعلاقة بين التعبير عند الأطفال والكلمات التي يحاول النطق بها.

وتمشياً مع الاتجاه الأول، فإن ديل Dale يفترض عدداً من القواعد العامة المتعلقة بالتطور الصوتي عند الأطفال:

- (١) يُعتبر التمييز بين الصوامت والصوائت أول مراحل التطور الصوتي.
- (٢) يُعتبر التمييز بين الصوامت الوقفية: Stop Consonants والصوامت الامتدادية Continuant Consonants، كالتمييز بين حرفي P و M في الإنجليزية من المراحل المتقدمة جداً في التطور الصوتي.
- (٣) يتعلم الطفل الصوامت الوقفية قبل الصوامت الاحتكاكية: Fricatives في أوائل الكلمات.
- (٤) إذا تشابه صوتان في كيفية النطق: Manner of articulation يصبح الأول منهما شفويّاً Labial، والآخر أسنانياً: Dental، أو لثويّاً: Alveolar.
- (٥) التمييز بين مخارج الأصوات يسبق عادة التفريق بين الأصوات المجهورة والأصوات المهموسة.
- (٦) يتأخر النطق بالصوامت المزجية Affricates والصوامت السلسلة Liquids عن النطق بالصوامت الوقفية والصوامت الأنفية Nasals.
- (٧) التمييز بين الصوائت المنخفضة والصوائت المرتفعة Low and High vowels، يسبق التمييز بين الصوائت الأمامية والخلفية Front and Back vowels.
- (٨) يسبق النطق بالصوائت الشفوية النطق بالصوائت الأنفية.
- (٩) يأتي توالي الصوامت Consonant cluster والنحت Blend في مراحل متأخرة.

(١٠) التمييز بين الصوامت في بدايات الكلمات ، يسبق التمييز بينها في أواسط الكلمات أو أواخرها^(١٢) .

ويبين هذا التفاعل الواضح بين علم الأصوات وعلم اللغة النفسي ، أن فئات الأصوات التي وضعها علم الأصوات تُستعمل بوضوح في سياق لغوي نفسي ، ويبدو من العسير أن تتصور أن مثل هذا السياق يمكن أن يوجد لولا وجود هذه الفئات الصوتية .

هذا إضافة إلى أن بعض المعارف الصوتية تُستعمل في جانب آخر من جوانب علم اللغة النفسي ، وهو جانب تغيير الأطفال لنطق بعض الأصوات حين يتعلمون لغة ما .

ففي معالجة هذا الجانب ، يلجأ علماء اللغة النفسانيون إلى استعمال الكثير من المصطلحات الصوتية ، إضافة إلى الحديث عن الكثير من الإجراءات الصوتية Phonological processes ، ومن أمثلة ذلك : همس الحرف الأخير Final Devoicing ، وتحويل الحرف الأول إلى صامت وقُفِّيّ : Initial Stopping ، وتحويل الصامت إلى صامت انزلاقي Gliding ، والحذف Deletion والإقحام Epenthesis وغير ذلك كثير .

ولعل كل ما سبق دليل واضح على أن علم اللغة النفسي وعلم الأصوات - بوصفه فرعاً من علم اللغة النظري - يعملان معاً لتحقيق أهداف مشتركة والوصول إلى غايات موحدة .

ونظراً لهذه الرابطة العلمية الوثيقة بين علم اللغة النفسي ، وعلم الأصوات التي تقوم أساساً على لغة الطفل ، فإن الباحث سيخصص جزءاً مستقلاً في نهاية هذه الورقة لمناقشة أحد جوانب الاهتمام البارزة لعلم اللغة النفسي ، وهو لغة الأطفال . وأن يكون الاهتمام في هذا الجزء منصباً على الحسية والتجريد في لغة الأطفال ، وذلك تقديراً للحيز المحدود المتاح لهذه الورقة ، إضافة إلى أن استعراض ما جاء في الأعمال اللغوية العربية - حول موضوع الحسية والتجريد في لغة الطفل - أثبت أن هذا الجانب لم يلقَ اهتماماً كافياً ، ولم يذكره إلا أحد الباحثين عَرَضاً كما جاء في الفصل الخاص بالدراسات العربية في هذه الورقة .

لذلك ، فإن هذه الورقة ستحاول الخروج بتصوّر عام حول كون تفكير الأطفال حسيّاً أو مجرداً عن طريق استعراض عدد من الأعمال العلمية للباحثين الغربيين البارزين في هذا المضمار . فبعد استعراض أهم ما ورد في هذه الأعمال ، يقوم الباحث بعرضها وتحليلها وتلخيص نتائجها العامة .

٦-٣ - علم اللغة النفسي واكتساب اللغة Language Acquisition

إن من أبرز اهتمامات علم اللغة النفسي ، دراسة كيف تُكتسب اللغة ، وقد افترض دارسون كثيرون عدداً من مراحل التطور في اكتساب اللغة ، وكانت هناك اتجاهات متباينة كثيرة في افتراض وجود بعض المراحل دون بعض .

ومن الاتجاهات المهمة في هذا المجال اتجاه بياجيه : Piaget الذي يُعتبر الاتجاه الذهني الأساسي في اكتساب اللغة .

ولعل النقطة الأساسية في اتجاه بياجيه هو أن اكتساب اللغة يتطور على أساس من التراكيب الذهنية الحس - حركية : Sensory-motor cognitive structures ، لذلك فهو يفترض مراحل ثلاثاً : المرحلة الحس حركية : The sensory-motor stage ، ومرحلة الذكاء التعبيري : The representational intelligence ، ثم مرحلة اللغو بوصفها امتداداً لمرحلة التعبير (بعد أن يتعرف الفرد على الرموز اللغوية مجتمعة) Language as an extension or representational level .

وسوى اتجاه بياجيه ، فإن هناك اتجاهاً آخر هو الاتجاه اللساني : Linguistic Approach ، ويمثله العالم اللغوي الأمريكي : نوم تشومسكي Noam Chomsky ، الذي يتحدث عن آلية Mechanism في اكتساب اللغة ، يشير إليها بجهاز اكتساب اللغة : "Language Acquisition Device" ، وهذه الآلية يمكنها أن تستنتج نحواً كاملاً (أو نظاماً لغوياً كاملاً) من عدد محدود من التغيرات اللغوية .

وهذه الآلية الافتراضية يمكن لها أن تطور نظاماً نحوياً عن طريق تلقّي مجموعة متكاملة من الاستعمالات اللغوية ، ثم تمريرها في الوعاء الذهني الذي يستعمله الإنسان عند التعامل مع تعلم اللغة . وهذا الوعاء الذهني الذي يسميه Chomsky : LAD ، خاص ببني الإنسان كما يوضح ، بحيث إن الحيوان لو تلقى مجموعة متكاملة من الاستعمالات اللغوية ، فإنه لا يستطيع أن يطور نظاماً نحوياً .

وعليه ، فإن الوعاء الذهني LAD يستقبل الاستعمالات اللغوية ويمررها من خلاله لتخرج من الجانب الآخر على شكل استعمالات لغوية خاصة بالشخص المتلقي . ويعبر بعض اللغويين عن هذا الوعاء بأنه الصندوق الأسود ، أو Black Box .

أما الاتجاه السلوكي في اكتساب اللغة فيمثلته سكينر Skinner ، الذي يفترض بوجه عام أن السلوك النطقي يحدث تحت تأثير بعض الحالات المحفزة المعروفة .

ومع اختلاف الاتجاهات في تفسير اكتساب اللغة ، إلا أنها جميعاً تستخدم غرضاً واحداً ، هو محاولة إيجاد وصف دقيق للتطور اللغوي عند الإنسان . وجميع هذه الاتجاهات تنضوي في إطار علم اللغة النفسي العام ، لأن محاولة الكشف عن الكيفية التي تُكتسب بها اللغة هي من أهم أهداف علم اللغة النفسي كما تقدم .

وفي معرض الحديث عن اكتساب اللغة، بوصفه أحد الاهتمامات الرئيسة لعلم اللغة النفسي، لا بد من الإشارة إلى عمل Steven Krashen في مجال اكتساب اللغة وفرضياته الشهيرة حول طبيعة اكتساب اللغة. إذ جاء كراشن بخمس فرضيات حول طبيعة اكتساب اللغة، ويمكن أن تفسر هذه الفرضيات الكثير من التساؤلات حول هذا الأمر الهام، وتوضح الكثير من الغموض المثار حوله.

الفرضية الأولى: فرضية الاكتساب والتعلم **The Acquisition-Learning Hypothesis** : بناء

على هذه الفرضية، فإن متلقن اللغة يتعلمها بطريقتين:

(١) **الاكتساب:** وهو عملية تلقائية لا شعورية، وذلك لأن مكتسب اللغة لا يشعر باكتساب المهارات اللغوية حين يحدث له ذلك، حيث إنه لا يستطيع أن يصف ما اكتسبه على الرغم من إحاطته باللغة.

(٢) **التعلم:** ويختلف عن الاكتساب، حيث إن التعلم هو معرفة قواعد اللغة، ويقتضي ذلك الإحاطة بالقواعد النحوية للغة، والمقدرة على تصحيح الأخطاء اللغوية، ويبنى ذلك على ما يُلقن للطالب في الحصص اللغوية المدرسية، بينما يُبنى الاكتساب على التقاط اللغة من متحدثيها في المجتمع الذي يعيش فيه المتلقن.

الفرضية الثانية: فرضية الترتيب الطبيعي لاكتساب المهارات اللغوية **The Natural Order Hypothesis** :

وتقول هذه الفرضية إن متعلمي اللغة يكتسبون التراكيب النحوية في ترتيب مُطَّرد، ومعنى ذلك أن بعض القواعد النحوية يُكتسب في وقت مبكر، وبعضها الآخر يُكتسب في وقت أطول نسبياً.

الفرضية الثالثة: فرضية جهاز المراقبة اللغوية **The Monitor Hypothesis** :

وتبين هذه الفرضية العلاقة بين الاكتساب والتعلم، حيث توضح أن اكتساب اللغة يؤدي إلى الطلاقة في التحدث والمقدرة على استعمال اللغة بجرية واطمئنان، أما تعلم قواعد اللغة فيقوم بدور جهاز المراقبة لتصحيح الأخطاء اللغوية لدى الفرد، للتأكد من صحة العبارات قبل التفوه بها، وفي بعض الأحيان بعد التفوه بها.

الفرضية الرابعة: فرضية التلقّي **The Input Hypothesis** :

وتقول هذه الفرضية إن اللغة تُكتسب حين يفهم المتلقي عبارات هي أعلى قليلاً من مستواه اللغوي الفعلي، مما يؤدي إلى اكتسابه للقواعد الجديدة، حيث إن فهم العبارات يكون تلقائياً وبدون التركيز على القواعد أو محاولة تحليلها من قبل المتلقي. لذلك تقول هذه الفرضية، إنه يجب

عدم عرض القواعد النحوية بترتيبها المعهود، وذلك لإتاحة الفرصة للمتلقى لاختيار ما يمكن استيعابه حين يكتسب اللغة .

الفرضية الخامسة: فرضية المؤثرات النفسية **The Affective Filter Hypothesis** :

وتهتم هذه الفرضية بتأثير العوامل النفسية على اكتساب اللغة، بما في ذلك تركيب شخصية الدارس بالإضافة إلى النواحي الدافعية وغيرها من العوامل النفسية، وتدخل تحت هذه الفرضية اعتبارات:

التوتر النفسي: كلما خفت حدة التوتر النفسي وقت تعلم اللغة، اكتسب الطلاب معلومات أكثر .

التشجيع: كلما شجّع الطلاب أكثر، اكتسبوا اللغة بشكل أسرع .

الثقة بالنفس: إن الطالب الذي لديه ثقة بنفسه، يكتسب اللغة بشكل أفضل من طالب آخر ليست لديه ثقة بنفسه^(١٣) .

٦-٤- علم اللغة النفسي ولغة الطفل Child Language:

تقدم أن من أبرز اهتمامات علم اللغة النفسي، هو التعامل مع لغة الطفل، بوصفها مؤشراً مهماً لكيفية تفاعل النظام اللغوي مع النظام الفكري عند الإنسان، والواقع أن علم اللغة النفسي يتعامل مع لغة الطفل بطرائق مختلفة ومستويات متعددة، منها المستوى الصوتي الذي شرحته هذه الورقة بإسهاب في معرض الحديث عن العلاقة بين علم اللغة النفسي وعلم الأصوات .

ومن المستويات المهمة التي اهتم بها علم اللغة النفسي كذلك مستوى التفكير اللغوي عند الأطفال ما إذا كان حسيّاً: **Concrete** أو مجرداً: **Abstract**، ومع أن التفكير السائد هو أن تفكير الأطفال اللغوي تفكير حسي أكثر منه مجرداً، إلا أن ذلك لا يكفي للتثبت من هذه الحقيقة . فكما تقدم، إن علماء اللغة يؤمنون بتعريض كل الظواهر اللغوية للتجريب، وهذه الظاهرة هي إحدى الظواهر التي أجرى عليها علماء اللغة النفسانيون العديد من التجارب .

فهناك سؤال طالما يلوح في الأفق فيما يتعلق بلغة الطفل: هل يمكن للطفل أن يعبر عن الملعقة مثلاً بأنها: (قطعة معدنية)؟ أو عن الإنسان بأنه: (كائن بشري)؟ أو عن الهرة مثلاً بأنها: (حيوان أليف)؟ أو هل يمكنه فهم مصطلحات مثل: العمق والسطحية والتعقيد والسهولة وغير ذلك؟

وبدون البحث عن إجابة لكل تلك الأسئلة، يستطيع المرء أن يجزم بأن الطفل لا يمكن أن يعبر عن الملعقة بأنها قطعة معدنية، كما لا يفهم الكثير من المعاني المجردة .

ونستطيع أن نقول نظرياً، إن التفكير المجرد الذي يعكس استعمال الكلمات المجردة، إنما

يظهر ويتجلى في مرحلة متأخرة من مراحل التطور اللغوي عند الإنسان . وبالمقابل ، فإن التفكير الحسي واستعمال الكلمات الحسية ، يظهر في مرحلة متقدمة . فمكتسب اللغة يدرك أولاً أن الملعقة : ملعقة ، ثم يدرك لاحقاً أنها قطعة معدنية .

ولنتعرف علمياً على الطريقة التي يفكر بها الأطفال ، وما إذا كان تفكيرهم حسيّاً أو مجرداً لا بد من الرجوع إلى بعض المصادر التي بحثت في لغة الطفل ، والتي ناقشت كون لغة الطفل حسيّة أو مجردة ، ويمكن الرجوع إلى بعض التجارب التي أجريت في هذا الخصوص من تجارب علم اللغة النفسي ، لإعطاء جواب علمي عن هذا السؤال الكبير .

يؤكد العالمان اللغويان النفسانيان كلارك و كلارك Clark and Clark في كتابهما الموسوم : علم النفس واللغة : **Psychology and Language** أنه قبل أن نفكر في حسيّة أو تجريد التفكير واللغة عند الأطفال ، فلا بد لنا أن نفكر في الطريقة التي تمثل فيها الكلمات في الذاكرة الدائمة ، يجب أن نعلم ذلك ونتأكد منه قبل أن نجزم بأن هناك خياراً بين الكلمات الحسيّة والكلمات المجردة ، وأنه لا توجد خيارات من نوع آخر ، وإلا فإن افتراضنا هذا يفقد الكثير من مقوماته وأساسياته منذ البداية .

وإزالة لهذا الإبهام ، فإن اللغويين يؤكدان ما يلي : " عند بناء البرنامج النطقي لدى الأفراد ، فإنهم حتماً يرسمونها في معرفتهم الصوتية داخل الذاكرة . فلنأخذ على سبيل المثال الفعل (يتصرف) . ففي بعض المستويات في الذاكرة ، يظهر هذا الفعل كوحدة واحدة تحمل معنى معيّنًا ، وأنه تركيب من بعض المقاطع الصوتية يوشك أن يدرج في البرنامج الصوتي لدى الفرد .

ولكن ماذا عن الفعل (تصرف) الماضي من (يتصرف) ؟ هناك على الأقل طريقتان يمكن أن يظهر بهما هذا الفعل ، إذ يمكن اعتباره وحدة واحدة : (تصرف) يعلق بها المعنى الدلالي الذي هو الزمن الماضي للتصرف ، كما يمكن اعتباره جزءين : تصرف + الزمن الماضي ، وهذان الجزءان يتحولان لاحقاً إلى برنامج نطقي هو (ت+ص+ر+ف) .

وبالنظر إلى هاتين الطريقتين التي يمكن أن تظهر بهما الكلمة في الذاكرة ، فإنهما تمثلان نظريتي الحسية والتجريد في المعلومات المفرداتية " (١٤) .

وعليه ، فإن كلارك و كلارك يسوقان الدليل ابتداءً على أن هناك خياراً بين الكلمات الحسيّة والكلمات المجردة في التفكير اللغوي الإنساني .

ولا شك في أن سوق هذا الدليل له أهميته الكبيرة في استهلال البحث في كون التفكير اللغوي لدى الأطفال حسيّاً أو مجرداً ، إذ إن الحكم على هذا التفكير بأحد الاحتمالين لا تكون له قيمة علمية إن لم نتحقق سلفاً من أن فكر الإنسان يفرق ويميز بين الكلمات الحسيّة والكلمات المجردة ، وهو ما يعطي أهمية مميزة لما جاء به كلارك و كلارك .

ومما لجأ إليه بعض علماء اللغة النفسانيون لإثبات أن فكر الأطفال فكر حسي أكثر منه مجرداً، المقارنة بين أسماء الذوات كالسرير والكرسي والمنضدة وسواها، وبعض الكلمات الأخرى كحروف الجر أو الظروف، بوصف النوع الأول يمثل كلمات محسوسة، والآخر يمثل كلمات مجردة.

فقد حاول كلارك Clark في كتابه الموسوم: الاستراتيجيات غير اللغوية واكتساب معاني الكلمات : *Non-Linguistic Strategies And Acquisition of Word Meanings* أن يختبر كيفية تعامل الأطفال مع كلمات مثل: في/ على/ تحت/ وهكذا، إذ قد طلب في التجربة التي قام بها من الأطفال أن يضعوا لعبة ما في شيء أو على شيء أو تحت شيء. وكانت النتيجة أن الأطفال بين سن السنة الواحدة إلى السنتين، استطاعوا أن يتعاملوا بشكل مع كلمة (في)، وكانوا مصيبيين إلى درجة ٦١٪ مع كلمة (على)، ولكنهم كانوا يخطئون بشكل دائم تقريباً مع كلمة (تحت).

ومن الفرضيات التي أتى بها كلارك تجاه هذه النتائج، أن الأطفال لم يدرکوا تماماً ما تعنيه هذه الكلمات، ومع أنهم يدرکون أن هذه الكلمات جميعاً ذات علاقة بالمكان، إلا أنهم لا يدرکون المعنى المحدد لكل كلمة على حدة، ولكنهم في نفس الوقت يدرکون معنى كلمة سرير، ذلك أنه حين طلب منهم وضع شيء تحت أو على أو في السرير، كانوا يضعونه تحت السرير أو عليه، مع أنهم لا يعلمون ما تعنيه هذه الكلمات التي تدل على المكان.

ولكن التجربة أثبتت كذلك أنهم يعلمون أن شيئاً محدداً على السرير، ذلك أن السرير شيء توضع الأشياء عليه وليس تحته، لذلك فقد كانوا يضعون الألعاب معظم الوقت فوق السرير وليس أسفل منه، حتى في الحالات التي طلب منهم فيها وضعها أسفل منه. وما دلت عليه هذه التجربة بالطبع، أن كلمة حسية مثل (سرير) يفهمها الأطفال جيداً، أما الكلمات المجردة مثل تحت وعلى وفي فكانت غير مفهومة.

وعليه، فإن كلارك يرى أن الأطفال في هذه السن (بين الأولى والثانية) لم يتعلموا بعد، أو لم يدرکوا المدلولات المكانية لهذه الكلمات، وهو ما يثبت بالطبع أن تفكير الأطفال يتجه إلى إدراك الكلمات الحسية أكثر من إدراكهم للكلمات المجردة^(١٥).

ولجأ فريق آخر من علماء اللغة النفسانيين إلى قياس المدة الزمنية التي يستطيع فيها الإنسان تصنيف بعض الموجودات بمواصفاتها المجردة، كالحكم مثلاً على الملعقة بأنها قطعة معدنية، أو الهر مثلاً بأنه حيوان أليف، بمقابل تسمية الأشياء بأسمائها المعهودة، كتسمية الهر هراً والملعقة ملعقة، وذلك لإثبات أن تسمية الأشياء بأسمائها المعهودة يأتي أولاً.

لذلك، فإن ديل: Dale يرى في كتابه: النمو اللغوي: التركيب والوظيفة *Language Development: Structure and Function* أنه في اكتساب المفردات، يستعمل الأطفال عادة

كلمات مثل : حليب ، وماء قبل كلمة : سائل ، وكلمات مثل : تفاح وبرتقال قبل كلمة : فاكهة ، وكرسي ومنضدة قبل مفروشات ، وماما وبابا قبل : الأبوين أو الأشخاص ، وهكذا .

ويدل ذلك على أن هذا اللغوي النفساني يؤيد الفكرة القائلة بأن الكلمات الحسية تُكتسب قبل الكلمات المجردة ضمن إطار (اكتساب اللغة) ، مما يعني أن تفكير الأطفال حسي وليس مجرداً. ويعطي ذلك تصوراً شبه متكامل لطبيعة لغة الأطفال وتفكيرهم ، ويعبر (دبل) عن فكرته هذه بوضوح حين يقول : " يبدو من الواضح أن الأشياء تُسمى أولاً بحيث يمكن تصنيفها بشكل عملي .

ولهذا السبب (فإن الذين شاركوا في التجربة) أشاروا إلى الملعقة بأنها (ملعقة) وليس بأنها من (فضيات المائدة) ، كما أشاروا إلى ربع الدولار بأنه (ربع دولار) وليس (قطعة معدنية) . وكذلك تعامل المشاركون مع أفراد العائلة وسوى ذلك من الكلمات . وحين تم قياس التعامل مع هيكل تدريجي للكلمات ، وُجد أن الكلمات المجردة تكتسب أولاً ثم ينتقل تدريجياً إلى الكلمات المجردة .

لذا ، فإن علماء النفس الذين يعتقدون بأن النمو الذهني عند الإنسان ، ينتقل من المجرّد إلى المحسوس ، قد شعروا بالخجل حين رأوا - كما دلّت عليه هذه التجربة - أن نمو المفردات يُبنى في الاتجاه المعاكس . ولكن هذه الحقيقة ينبغي أن لا تزعجهم كثيراً ، حيث إن الترتيب الذي يتم فيه اكتساب الكلمات لا ترقى إلى إدراكه قدرات الأطفال التمييزية ، بحيث يضاهاها مهارة الكبار في تسمية الأشياء " (١٦) .

وربط بعض الباحثين التفكير اللغوي عند الأطفال بتصور الأشياء ، وقالوا إن أول مرحلة من مراحل العملية الفكرية اللغوية هي تصور الموجودات من حول الطفل ، ويلى هذا التصور البحث البدء في الإشارة إلى الأشياء المحسوسة دون استعمال اللغة ، وبالتالي يبدأ في إدراك أن الأسماء التي يسميها تشير إلى بعض المحسوسات من حوله ، فيبدأ في استعمال الأسماء التي تشير إليها ، التي تكون تبسيطاً لما يسمعه من كلمات الكبار .

ومن بحث في هذه الظاهرة فوس وهيكس Foss and Hakes في كتابهما : علم اللغة النفسي : مقدمة في سيكولوجية اللغة : *Psycholinguistics, an Introduction to the Psychology of Language* للذنان تحدثنا عن (ثبات الأشياء) ، وهو ما تحدّث عنه الكثيرون من علماء النفس ، وما هو مهم في كشفهما هو أن الاكتشاف الأول للأطفال في اللغة هو القدرة على تصور الأشياء ، ثم يصبح الاستعمال الأول للغة هو الإشارة إلى الأشياء المحسوسة مثل الأشياء والأحداث .

وقد وضع المؤلفان هذه الفكرة بجلاء حين قالوا : " إن طبيعة هذا الاكتشاف أشبه ما تكون باللغز ، ولكن يبدو على الأرجح أنه متعلق بقدرة الطفل المتنامية على تصور الأشياء ، وحين يطور

الطفل تصوراً لديه بأن شيئاً ما يُعتبر جزءاً ثابتاً ومميزاً من العالم حوله، حينها فقط يبدأ بملاحظة أن الأسماء التي يسمعها، والتي يبدأ في إصدارها تتعلق بشكل نسقي بالأشياء والأحداث في بيئته. وتُعتبر تلك بداية التعبير اللغوي الذي ينتج في الغالب من تنامي الفهم والتصوير، بأن الأصوات اللغوية يمكن أن يُشار بها إلى الأشياء والأحداث" (١٧).

كما أن بعض الدارسين نظر إلى الطلاقة: Fluency باعتبارها مؤشراً على صعوبة أو سهولة بعض الكلمات، وافترضوا أن الكلمات الحسية قد يتفوه بها الأطفال بطلاقة، بينما لا يتفوهون بالكلمات المجردة بنفس القدر من الطلاقة، وعليه فإن استعمال الكلمات الحسية لا يسبب الكثير من الحيرة أو التردد بعكس الكلمات المجردة. لذلك فإن هذا الفريق من الباحثين، قد أعطى دوراً معيارياً للطلاقة في لغة الطفل، باعتبارها مؤشراً على صعوبة الكلمات أو سهولتها.

ففي دراسة جولدمان: Goldman "التردد والمعلومات في الكلام" Hesitation and Information in Speech رغب هذا الباحث اللغوي النفساني في إثبات أن التعبير الحسي لا يسبب الكثير من الحيرة والتردد، وأنه ينساب بطلاقة أكثر من التعبير المجرد.

وفي التجربة التي أجراها هذا الباحث، عرض بعض أفلام الكارتون (الصور المتحركة) على بعض الأطفال المشاركين في التجربة، وطلب منهم أن يحاولوا ملاحظة المغزى الأخلاقي من هذه الأفلام، وكان يُفترض بكل واحد منهم ممن أدرك هذا المغزى أن يعيد حكاية القصة التي شاهدها في أفلام الكارتون، كما كان عليه أن يشرح المغزى الأخلاقي.

والعامل المهم في هذه التجربة العلمية، هو أن المشاركين فيها من الأطفال كان عليهم أن يتعاملوا مع نوعين من الحكاية الكلامية: النوع الأول حسي، وتمثله أحداث القصة المختلفة، أما الثاني فمجرد، ويمثله المغزى الأخلاقي للقصة. وقد كانت النتيجة الرئيسة للتجربة، أنه كانت هناك وقفات أكثر وتردد أكثر في شرح المغزى الأخلاقي للقصة، بينما لم تكن هناك وقفات أو تردد يُذكر في حكاية أحداث القصة، وكان معنى ذلك بالطبع أن التعبير الحسي لا يسبب الكثير من الحيرة والتردد، وأنه ينساب بطلاقة أكثر من التعبير المجرد.

ولعل النتيجة الأكثر أهمية التي توصلت إليها الدراسة المذكورة، أن الأطفال يتعلمون بسهولة التعبيرات التي تنساب بطلاقة، بينما يتأخرون في تعلم التعبيرات التي تسبب الحيرة والتردد، وهذا يُفضي بالطبع إلى الجزم بأن التعبيرات الحسية أسهل في الاستيعاب والتعبير على الأطفال من التعبيرات التجريدية (١٨).

ويتفق مع جولدمان في إعطائه الطلاقة دوراً معيارياً بافيو وبيغ Paivio and Begg في كتابهما الموسوم: سيكولوجية اللغة: Psychology of Language؛ إذ يشير المؤلفان إلى دراسة أجراها

رينولدز وبافيو، تعرضا فيها إلى تأثيرات الحسية والتجريدية - ضمن عدد من المؤثرات - على توليد الكلام، باستعمال الكلمات فقط كمحفزات. وعُرِضت على المشاركين في تجربتهما - كل على حدة - خمسة أسماء حسية، وخمسة أسماء مجردة، وطلب منهم تعريفها شفويًا.

وبتحليل هذه التعريفات الشفوية، تبين أن الكلمات الحسية كانت تعريفاتها مطوّلة، كما كانت هذه التعريفات سريعة ومباشرة، ولم يرصد أي موقف أو تردد في التعريفات الحسية، كما لم يرصد أي مظهر من مظاهر التلجج، بل إن التعريفات قيلت بطلاقة بالغة. وكان ذلك كله بعكس تعريفات الأسماء المجردة التي كانت تعريفاتها بطيئة وشابها الكثير من التردد والوقف.

وباختصار، فإن الكلمات الحسية أظهرت طلاقة لدى المشاركين في تعريفها أكثر من الكلمات المجردة.

يقول بافيو ويغ في ذلك: " ومع أن هذا الكشف يحتاج لأن يُختبر مجدداً في تجارب مستقبلية، إلا أن المادة العلمية التي قدمتها دراسات أخرى تتفق مع التفسير الذي قدمناه، من أن الكلمات الحسية تظهر طلاقة لدى المتحدثين في تعريفها، وذلك لأن الأشخاص موضع القياس استحضروا صوراً كثيرة غير كلامية (صامتة) استعملت عاملاً مساعداً لإخراج النتاج الكلامي" (19).

وما يتعلق من هذه التجربة بالدراسة الحالية، هو أن طلاقة الأطفال في تعريف الأسماء الحسية، دليل على أن هذا النوع من الكلمات أسهل في اكتسابه وأسرع من الكلمات المجردة، ويتفق ذلك مع ما أشار إليه جولدمان في دراسته السابقة.

ومن المقارنات التي فكر بعض الباحثين في عقدها بين أنواع الكلمات لاختبار سهولة بعضها وصعوبة بعضها الآخر، المقارنة بين الأسماء من جهة، والأفعال والنعوت من جهة أخرى، على اعتبار أن الأسماء أو الكلمات التي تحمل صفة الاسمية تُعتبر كلمات محسوسة إذا ما قورنت بالأفعال أو النعوت التي تُعتبر في كثير من الأحيان أقرب لأن تكون كلمات مجردة. ومن ثم يمكن قياس مدى تعلم الأطفال لبعض الأنواع قبل البعض الآخر، ليتمكن الحكم من خلال النتيجة بأن التفكير اللغوي لدى الطفل حسّي أو مجرد.

فقد تطرق هيب: Hebb وآخرون في دراسة بعنوان: "اللغة، التفكير والخبرة" "Language Thought and Experience" إلى سؤال مهم ذي علاقة بلغة الطفل حول ما إذا كانت الأسماء تُكتب قبل الأفعال والنعوت أو لا، ويصبح هذا السؤال مهماً إذا حاولنا أن نحدد أي هذه الكلمات يعتبر حسياً أكثر من البقية. ثم ننظر في أيها يكتسب أولاً كما أسلفنا.

ويقدم هيب وزملاؤه جواباً مقنعاً عن هذا السؤال حين يفترضون أن الاسمية Nounness تأتي أولاً، وأن الطفل يجد معايير مشاهدة للاسمية في الأشياء.

ويوضح هيب وزملاؤه أن اكتساب المفردات، إنما هو مزيج من التلقّي والتحقّز : **Perceptual and Stimulus Learning** ويعتمد التقليد : **Imitation** الذي يلعب دوراً معيارياً في الكلام العلني التلقائي على تعلم قائم على التلقّي الكلامي بالدرجة الأولى، بينما يعتمد تعلم الكثير من الأساليب النحوية كالجمع والنفي على تلقّ آخر غير كلامي .

فالنفي مثلاً له علاقة في تفكير الطفل بغياب الأشياء، أو بالمنع من الإقدام على بعض التصرفات، وهكذا . وهو تلقّ لا يعتمد على الكلام، وإنما على المواقف فقط . ولذلك فقد اقترح الباحثون : هيب وزملاؤه أن الاسمية تأتي أولاً، وأن الطفل يجد معايير مشاهدة للاسمية في الأشياء .

ومن الأدلة التي ساقوها على صحة افتراضهم هذا، أن السياق الكلامي الذي يتكون من (اسم + نعت) كان أسهل في التعلم في تجربتهم من السياق (نعت + اسم)، وتوصلوا من ذلك إلى أن الأسماء تُكتسب قبل الأفعال والنعوت، وهو دليل مباشر بدوره على أن الكلمات الحسية تكتسب قبل الكلمات المجردة^(٢٠) .

وأعطى بعض الباحثين دوراً معيارياً للبيئة الاجتماعية في تشكيل التفكير اللغوي للطفل . ففي دراسة لهولوس وكوان : **Hollos and Cowan** عنوانها : " الفصل الاجتماعي والعمليات الذهنية والقدرة على أخذ الأدوار في ثلاثة محيطات اجتماعية نرويجية " :

" **Social Isolation and Cognitive Operations and Role-Taking Abilities in three Norwegian Social Settings** " .

ذهب المؤلفان إلى أن من أهم المؤثرات على النمو الذهني واللغوي للطفل، هي البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الطفل، بحيث إن الأطفال الذين يعيشون في بيئات مختلفة قد يفكرون بطرق مختلفة، وما يهمنا في ذلك ما ذهب إليه الباحثان من أن بعض الأطفال قد يكون تفكيرهم حسيّاً، وبعضهم الآخر قد يكون تفكيرهم مجرداً، اعتماداً على البيئة التي يعيشون فيها .

وقد حاول الباحثان عن طريق التجربة العلمية أن يبيّنوا الفرق في طريقة التفكير بين الأطفال الذين يعيشون في بيئات مختلفة، وقد قاما بدراسة النمو الذهني والكلامي لدى بعض الأطفال ممن يعيشون في مزارع منعزلة، وقارنأهم بأطفال آخرين يعيشون في وسط عائلي قريب من حيث عدد الأفراد ومختلف في درجة التعليم في قرية صغيرة، وفي إحدى المدن متوسطة الحجم في النرويج .

وكان النمو اللغوي متقارباً في المحيطات الثلاثة : المزرعة، القرية، المدينة الصغيرة، ولكن الأطفال في القرية والمدينة الصغيرة كانت لديهم فرص أكثر للاحتكاك اللغوي مع الآخرين من أطفال المزرعة . وقد أجريت على الأطفال عدة اختبارات للقدرة الذهنية، بعض تلك الاختبارات كان ذا علاقة بالتصنيف المنطقي، والتفريق الحسي الفيزيقي بين الأشياء .

وبصفة عامة ، فإن مجموع المهام التي كُلف بها الأطفال كان القصد منها التعرف على قدرتهم على التفكير المنطقي ، إضافة إلى مقدرتهم على إصدار الأحكام على الأشياء المحسوسة ، والعلاقات القائمة بينها ، ونتيجة لهذه التجربة ، وجد الباحثان أن الأطفال المنعزلين في المزرعة كانوا متقدمين في المهام الذهنية البحتة التي تتطلب تفكيراً منطقياً ، مقارنة بالأشياء المحسوسة وصفاتها المميزة . أما أطفال القرية والمدينة الصغيرة ، فكانوا متقدمين أكثر من سابقهم فيما يتعلق بالأشياء المحسوسة . وعليه ، فقد توصل الباحثان إلى أن العوامل الاجتماعية ذات تأثير على النمو الذهني واللغوي لدى الأطفال ، وأن ذلك يؤثر في التفكير المجرد والحسي^(٢١) .

وقد رسم بعض الباحثين تسلسلاً زمنياً لتعلم واكتساب الكلمات لدى الأطفال ، ووضعوا تعلم الكلمات المحسوسة في صدر هذا التسلسل ، ثم أوردوا بعد ذلك ما يأتي بعد الكلمات المحسوسة من أنواع أخرى من الكلمات ، وبالطبع فإن هذه الاستنتاجات بُنيت على تجارب علمية تطبيقية .

ففي دراسة ماكنامارا Macnamara الموسومة : " القواعد الذهنية للتعلم عند الأطفال " :
"Cognitive Basis of Learning In Infants" ، كان من أهم ما توصل إليه أن الطفل يتعلم الكلمات المحسوسة قبل أن يتعلم الكلمات المجردة ، ويمثل ذلك بالطبع تحديداً مباشراً للكلمات الحسية بأنها أول ما يتعلمه الإنسان .

ويرى ماكنامارا أن تعلم المفردات له ترتيب زمني محدد . فالطفل يتعلم أول ما يتعلم أسماء الموجودات أو تحركاتها ، وأخيراً الأسماء الدالة على حالات أكثر ثباتاً مثل الألوان . ومن الأدلة الواضحة على ذلك أن الطفل أقدر على أن يميز - من بين كل ما حوله من الأشياء - الشيء الذي يشير إليه أحد والديه أو يسميه .

وكما وضع ماكنامارا ، فإن الأسماء الدالة على الحالات المختلفة للأشياء والأوضاع والتحركات ، تُكتسب في وقت مبكر ، ومن ذلك أوضاع الأب والأم مثل : الذهاب - الجلوس - الأكل ، وهكذا . . . وأوضاع الألعاب : الكسر - الضياع . . . إلخ . وأوضاع الكتاب : الفتح - الغلق . . . إلخ . وتختلف هذه الأوضاع المؤقتة عن أوضاع أخرى دائمة مثل (الحمرة) مثلاً ، فاللون الأحمر يُعتبر صفة دائمة للشيء ، وهو ما ينطبق على صفة الألوان بوجه عام إذ إنها تُكتسب في مرحلة متأخرة ، فقد وجد الباحث أن الأطفال الصغار يتنبهون للأوضاع المتغيرة كالحركات المختلفة مثلاً أكثر من تنبهم للأوضاع الثابتة كالألوان مثلاً .

ومع ذلك ؛ فإن الطفل لا يتعلم الكلمات التي تدل على التحركات والأوضاع المختلفة إلى أن يتعلم على الأقل أسماء الموجودات أو الأشياء المحسوسة التي تقوم بهذه التحركات أو تعيش هذه

الأوضاع . لذا؛ فإن الكلمات المبكرة التي يتعلمها الأطفال هي أسماء الأعلام للأخوة والأخوات أو الحيوانات وسواها . ومعنى ذلك بالطبع أن الطفل يتعلم الكلمات المحسوسة قبل الكلمات المجردة (٢٢) .

وأخيراً؛ فإن بعض الدارسين قد ذكر صراحة أن الأطفال يكتسبون الكلمات الحسية قبل الكلمات المجردة استناداً إلى بعض الأدلة العلمية . ففي كتاب سلوبين Slobin الموسوم : علم اللغة النفسي Psycholinguistics يؤيد هذا المؤلف الفرضية القائلة بأن الأطفال يكتسبون الكلمات الحسية قبل الكلمات المجردة ، ويعتقد سلوبين أن الطفل يبدأ بإدراك ما يتعلق بالأشياء من تصرفات (كاللعب بالألعاب والنوم على السرير مثلاً) ، ثم وفي مرحلة متأخرة يبدأ في تصور العلاقة بين الأشياء ومواصفاتها .

وللوصول إلى هذه النتيجة يقول هذا المؤلف : " توجد مؤكداً روابط نفسية حميمة بين القدرات التي تظهر بين سن تسعة أشهر واثنى عشر شهراً . فاللعب بالرموز والتقليد واستعمال بعض الأدوات تقتضي جميعاً تكويناً داخلياً للطفل ، ونمواً في السلوك المرتبط بالدوافع والحوافز ، مع فهم متزايد للأمر التي يترتب بعضها على بعض ، وفي هذه المرحلة يتصور الطفل الكبار من حوله ، إضافة إلى الأدوات التي يستعملها على أنهم جميعاً بمثابة الوسطاء بين رغباته وتحقق أهدافه .

وينمو الاتصال ويزداد عندما يدرك الطفل عن طريق جذب انتباه الكبار من خلال الكلام والإشارات ، أن الكبار يمكن أن يُسَخروا لتحقيق أهدافه . وتمثل هذه النقطة الإرهاصات الأولى لاستعمال أسلوب الطلب في اللغة ، كما أن الطفل قد يرمي إلى جذب انتباه الكبار لمجرد جذب انتباههم ، ويُعتبر ذلك هدفاً في حد ذاته ، ويبدأ الطفل عادة بعرض بعض الأشياء وبعض الحركات على الكبار ، وفي مرحلة لاحقة يصدر بعض العبارات التي لها علاقة بتلك الحركات وتلك الأشياء . وتمثل هذه النقطة الإرهاصات الأولى لاستعمال الأسلوب الخبري - بمقابل الطلبي أو الإنشائي - في اللغة .

والترتيب التصاعدي للمقدرة الاتصالية التي تنمو لدى الأطفال ، كما حدده جرينفيلد وسميث : Greenfield and Smith يعكس نمواً في أعداد الحركات والأشياء التي يمكن أن يتعامل معها الطفل حين يبدأ بتعلم التصرفات المتعلقة بالأشياء ، وفي مرحلة متأخرة تصور العلاقة بين الأشياء ومواصفاتها . وهذا الاستعداد الذهني برمته ينمو قبل اكتساب شيء من النحو أو قواعد اللغة " (٢٣) .

وتؤكد نتائج سلوبين بالطبع أن التفكير الحسي يسبق التفكير المجرد في اللغة ، وهو ما أجمعت عليه - تقريباً - كل الدراسات السابقة .

٦-٥- عرض وتطيل:

- (١) دلّت معظم التجارب العلمية التي أجراها كثيرون من علماء اللغة النفسانيين، على أن التفكير اللغوي لدى الأطفال تفكير حسي أكثر من كونه تفكيراً مجرداً .
- (٢) يتعلم الأطفال الكلمات المحسوسة قبل تعلمهم الكلمات المجردة .
- (٣) يدرك الأطفال مدلولات الكلمات التي تدل على موجودات مرئية، مثل: سرير، منضدة . . . إلخ، قبل أن يدركوا مدلولات كلمات مثل الظروف أو حروف الجر، مثل: فوق وتحت وفي وعلى .
- (٤) لا يستطيع الأطفال أن يصفوا بعض الأشياء بصفات مجردة، إذ لا يمكنهم تسمية الملعقة مثلاً: قطعة معدنية، أو الهرة: حيواناً أليفاً .
- (٥) إن أول مرحلة من مراحل التفكير اللغوي عند الأطفال هي مرحلة التصور، تليها مرحلة الإشارة دون استعمال اللغة، تليها عملية استعمال الكلمات المسموعة من الكبار بشكل مبسط، وفي كل تلك المراحل تبقى الكلمات محسوسة .
- (٦) تُعتبر الطلاقة في التفوه ببعض الكلمات معياراً في صعوبتها أو سهولتها، وعليه فإن الطلاقة في ذكر الكلمات المحسوسة دليل على أنها أسهل على الأطفال من الكلمات المجردة .
- (٧) يسهل على الأطفال إدراك الأسماء، بينما يصعب عليهم إدراك النعوت والأفعال، وهو دليل على أن الكلمات المحسوسة أسهل في التعلم من الكلمات المجردة .
- (٨) إن للبيئة الاجتماعية المحيطة بالأطفال دوراً في توجيه تفكيرهم اللغوي، وقد يكون لذلك دور في تحديد نوع تفكيرهم بين حسي ومجرد .
- (٩) يمكن تحديد تسلسل زمني دقيق لترتيب تعلم واكتساب الكلمات لدى الأطفال، وتأتي الكلمات الحسية في صدر هذا التسلسل، وتأتي الكلمات المجردة في زمن لاحق .

شواش البحث

- ١- انظر : علم اللغة بين القديم والحديث - لعبد الغفار هلال، ص. ص ١١٠ - ١١٢ .
- ٢- المصدر السابق نفسه . ص ١١٣ .
- ٣- انظر : مدخل إلى اللغة - لمحمد حسن عبد العزيز . ص ١٩٩ .
- ٤- المصدر السابق نفسه . ص ٣١٥ .
- ٥- انظر : اللغة واضطرابات النطق والكلام . لفیصل الزراد . ص. ص ٧٩-٨٠ .
- ٦- انظر : " في اكتساب الجملة عند الطفل " . لداود عبده . ص ٩-٤٣ .
- ٧- انظر : Slobin. Psycholinguistics. P.35.
- ٨- انظر : Paivio and Begg. Psychology of Language p.p 123-147.
- ٩- انظر : Clark and Clark. Psychology and Language p.p. 43-44.
- ١٠- انظر : Foss and Hakes. Psycholinguistics, an Introduction to the Psychology of Language. p.p. 133-168.
- ١١- انظر : Paivio and Begg. Psychology of Language. P.21.
- ١٢- انظر : Dale. Language Development. P. 214.
- ١٣- انظر : Krashen. "Bilingual Education in Second Language Acquisition Theory". p.p. 51-77.
- ١٤- انظر : Clark and Clark. Psychology and Language. P. 283.
- ١٥- انظر : Clark. "Non linguistic Strategies and the Acquisition of Word Meanings". p.2.
- ١٦- انظر : Dale: Language Development. p. 193.
- ١٧- انظر : Foss and Kakes. Psycholinguistics, an Introduction to the Psychology of Language. p. 235.
- ١٨- انظر : Goldman. "Hesitation and Information in Speech".
- ١٩- انظر : Paivio and Begg. Psychology of Language. p.207.
- ٢٠- انظر : Hebb and Others. "Language, Thought, and Experience". P.55.
- ٢١- انظر : Hollos and Cowan. "Social Isolation and Cognitive Operation and Role Taking Abilities". P.44.
- ٢٢- انظر : Macnamara. "Cognitive Basis of learning in Infants".
- ٢٣- انظر : Slobin. Psycholinguistics. P.82.

مراجع البحث

أولاً: المراجع العربية:

- ١) باكلا، محمد. وآخرون. معجم مصطلحات علم اللغة الحديث. بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٣ م.
- ٢) الخولي، محمد. معجم علم اللغة التطبيقي. بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٦ م.
- ٣) الزراد، فيصل. اللغة واضطرابات النطق والكلام. الرياض: دار المريخ، ١٩٩٠ م.
- ٤) عبد العزيز، محمد. مدخل إلى اللغة. القاهرة: دار الوفاء، ١٩٨٢ م.
- ٥) عبده، داود. " في اكتساب الجملة عند الطفل ". المجلة العربية للدراسات اللغوية. العدد الثاني، ١٩٨٦ م.
- ٦) كاكيا، بدير. العرّيف. معجم في مصطلحات النحو العربي. بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٣ م.
- ٧) هلال، عبد الغفار. علم اللغة بين القديم والحديث. القاهرة: مطبعة الجبلاوي، ١٩٨٦ م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

BIBLIOGRAPHY:

- 1) Chomsky, N. Aspects of the Theory of Syntax. Cambridge, Massachusetts: The M.I.T. Press, 1965.
- 2) Clark, H., and Clark, E. Psychology and Language. New York: Harcourt Brace Janovish, Inc. 1971.
- 3) Clark, E. "Non Linguistic Strategies and The Acquisition of Word Meanings" Cognition, 1973. 2.
- 4) Dale, P. Language Development: Structure and Function. New York: Hold Rinehart and Winston, 1976.
- 5) Foss, D. and Hakes, D. Psycholinguistics, an Introduction to the Psychology of language. New Jersey: Prentice- Hall, Inc. 1978.
- 6) Goldman, E. "Hesitation and Information in Speech" In: Cherry, C. (ED), Information Theory. London: Butterworths, 1961.
- 7) Hebb, D., and others. "Language, Thought, and Experience" In: Modern Language Journal, 1971, 55.
- 8) Hollos, M. and Cowan, P. "Social Isolation and Cognitive Operation and Role- Taking Abilities in three Norwegian Social Settings" In: Child Development, 1973, 44.
- 9) Krashen, S. "Bilingual Education in Second Language Acquisition Theory". In OBBE. Schooling and Language Minority Students. Los Angeles: California State University, 1983.
- 10) Macnamara, J. "Cognitive Basis of Learning in Infants". Psychological Review, 1962, 17.
- 11) Miller, G. "Some Psychological Studies of Grammar". In: American Psychologist, 1962, 17.
- 12) Paivio, A and Begg, I. Psychology of Language, Englewood Cliffs, N.J: Prentice-Hall, Inc., 1981.
- 13) Slobin, D. Psycholinguistics. Glenview, Illinois: Scott, Foresman and company, 1979.